

وقفة مع القديس أوغسطين

(٣٥٤ - ٤٣٠ م)

بقلم الدكتور محمد عبدالرحيم الزيني
المدرس في كلية التربية بحجة

مُتَلَمَّة

يعد القديس أوغسطين علما بارزا من أعلام المسيحية المرموقين، وشخصية كبيرة وقوية - وتمثل فلسفته منعطفا هاما في تاريخ الفلسفة المسيحية - لما كان لها من الأثر العظيم فيها. وتعد فلسفته قمة العصر الكنسي، وذلك أن الأوغسطينية ظلت تقريبا التفكير المسيحي التقليدي حتى نهاية عصر آباء الكنيسة بل في التفكير المسيحي خلال العصر المدرسي المتأخر^(١).

وترجع أهمية القديس أوغسطين في الفكر الفلسفي المسيحي والإنساني إلى:-

١- أنه عاش مبادئه وجسدها في سلوكه وتمثلت في حياته اليومية. فدافع عنها باصرار وثبات، ووهب حياته للمبادئ التي اعتنقها - والكنيسة التي آمن بها وعاش ومات من أجل المسيح والمسيحية.

٢- منهجه الفلسفي الواضح المحكم، إذ بنى إيمانه القوي، على أدلة برهانية، وعلى أساس العقل، فالإيمان عنده لم يكن عاطفة غامضة وتصديقا عاطلا من الاسباب العقلية ولكنه قبول عقلي لمجموعة حقائق، فيقع على العقل مهمة قبل الإيمان وبعده فالعقائد الأصلية الأولى قد أتت بها المسيحية وطالبت باعتقادها وعلى العقل من بعد أن يعرف هذه الحقائق الإيمانية أي أن على العقل أن يحول هذه إلى حقائق يقينية معقولة، فالإيمان أولا، ثم يأتي العقل بعد ذلك فيحل الشيء من حقيقة إيمانية إلى حقيقة برهانية^(٢). وهذا ماخصه في قوله: "تعقل كي تؤمن، وآمن لكي تتعقل".

٣- آرائه العميقة، وأفكاره الفلسفية الواضحة، وقدرته على بسطها وعرضها وأسلوبه السهل المميز، إذ أن له وقعا خاصا على أذن المتلقي، وقلب المستمع وتميز

برقة وعدوبة ترقى به إلى مصاف الآداب العالمية (٣).

٤- عاطفته الإيمانية القوية، وحسه الديني الظاهر في جميع توجهاته، وإقباله بالكلية على الله لدرجة الفناء، وفضلا عن مميزاته الشخصية إذ تميز بضمير نقي وسريّة صافية، وقلب طاهر، وشعور رقيق، وحس مرهف، يقول عن علاقة الإنسان بالله: "أنت تحسه على أن يبحث عن غبطتك في تسبيحك لأنك خلقتنا لأجلك ولن يهدأ لنا قلب حتى يستقر فيك".

حياته:

ولد أوغسطين في طاجسطة Tagaste (المعروفة بسوق الأهراس بنوميديا) بالجزائر سنة ٣٥٤هـ في بيت شريف من أب يقال أنه وثني، وأم متدينة متمسكة بمبادئ المسيحية هي "مونيكا" التي عملت على أن تربي ابنها على محبة المسيح والكنيسة، دخل المدرسة الابتدائية صغيرا ثم انتقل إلى معهد شهير في "مادورا" وأخذ ينهل العلم من معلميه، ويصغي إلى دروسهم بشغف وشوق، بعد أن ظهرت عليه ملامح الذكاء، وعلامات النبوغ، إلا أن أصدقاء الشر جرّوه إلى مبادئهم ومفاسدهم فطاعهم وفعل في تلك الأثناء شرورا عظيمة وموبقات مهلكة.

والحقيقة أن أوغسطين انصف في هذه المرحلة، برهافة الاحساس، وقوة العاطفة، وشدة التأثير، وورع قوي. أضيف إلى ذلك، رغبة ملحة في انتهاب اللذات، والأخذ بأكبر نصيب من طيبات الحياة، لهذا كانت نفسه ميدانا لصراع كبير بين نزعتين متضادتين، حاول جاهدا أن ينتصر على احدهما، وبالفعل تحرر من أسر الجسد وربقة المادة وشهوات النفس (٤) على أي حال عاد أوغسطين ثانية، وأكب على دراسته الجامعية فدرس اللاتينية وفن الخطابة واغمامة، ثم أنهى دراسته وعاد إلى مسقط رأسه لكي يسافر ثانية إلى قرطاجة، حيث أسس مدرسة لتدريس الخطابة، فذاع صيته، وانفتحت أمامه أبواب الشهرة لذلك وجد أن قرطاجة لاتفي بطموحه ورغبته في الاستزادة من العلم والثقافة، ومن ثم توجه شطر روما التي كانت تمثل، كعبة الثقافة، وقبلة القصاد، وقلب العالم المتحضر وقتذاك، للبحث عن اجابات شافية لما حاك في صدره من أسئلة حائرة وقلق شديد، ولم يمكث طويلا فيها، بل ذهب إلى ميلانو عام ٣٨٤م، وساعدته براعته الخطابية في تعيينه أستاذ الفن البيان في تلك المدينة، وكأنما كانت العناية الالهية تدخر له مفاجأة كبيرة ساعدته فيما بعد

للوصول إلى اليقين، إذ تعرف على القديس امبروزو Ambrosie، وأخذ يتردد على الكنيسة يستمع في عمق إلى عظاته وشرحه الروحي للكتب المقدسة وتفنيده لحجج المانوية، نسبة إلى ماني بن فاتك (ت ٢٧٦م).

ويقال أن أوغسطين اجتاحت موجة عاتية من القلق والحيرة والشك كالتّي تعزّي كثيراً من المفكرين في بحثهم إلى الوصول للحقائق اليقينية مثل الغزالي (٥٠٥هـ) وديكارت (١٦٥٠م). هذا علاوة على أن مشكلة وجود الشر داخل العالم قد حيرته حيرة شديدة، كيف جاء إلى هذا العالم؟ وما مصدره؟. ووجد بصيصاً من النور عند المانوية، إذ أنها ترجع حدوث الشر في زعمها إلى إله الشر، فأصبح "سماعا" فيها وظل يقضي أثرهم تسع سنوات يسمع منهم، آملاً أن تكشف أفكارهم عن الكثير من الصعوبات التي تعترض طريقه وتحل له العديد من المشكلات المعقدة التي سيطرت على نفسه هذه نقطة؛

والأخرى أن هذا المذهب قد أرضى النزعة الحسية المسيطرة عليه فوجد فيها تبريراً لاتجاهه الحسي المادي، ثم أن تقريرها بأن الشر عنصر أساسي في الطبيعة البشرية قدم له مسوغاً لاندفاعه تجاه الشر، أي لاتجاهه نحو اللذات الحسية واغترافه من كأسها^(٥).

الا انه لم يجد في مبادئها بغيته، ولم ترو غليله على حد تعبيره، واتخمت أذنيه بالكثير من الخرافات عن السماء والشمس والقمر والنجوم، وعجزت عن شرح الموضوعات التي كان يأمل أن يسمع عنها اجابات شافية، وجاءت مواعظ القديس امبروزو، وتفنيده لحججهم، واطهار تهافت آرائهم، قاصمة الظهر، لذلك فقد حاسة تجاه هذه الفرق، وبدأ في قطع صلاته بأصحابها، وأخذ ينتظر بزوغ فجر جديد يرشده إلى الحقيقة^(٦). وينقذه من حالة الشك التي بدأ يعانيها، ثم توفر على دراسة تساعيات افلوطين السكندري (٢٧٠م) وآراء الافلاطونية المحدثة وأعجبه في البداية فلسفة افلوطين، إذ يغلب عليها الطابع الروحي، وتتميز بمنهجها التأملي الباطني، ومحاولتها تحرير الانسان من ربكة الجسد، وشهوات النفس، وشوائب المادة - لاسيما وهذه النزعات قد سيطرت عليه - والصعود بالنفس إلى مراقي الخير، ومدارج النور حتى تفنى في الواحد، لكن هذه الفلسفة في النهاية لم تقدم له تفسيراً عقلياً مقبولاً عن خلق العالم، فضلاً عن أن نظريتهم في الفيض، تقول بفيض العقل والنفس والموجودات المادية عن الواحد^(٧). وهذا يخالف تماماً للشالوث المسيحي أي الأب والابن وروح القدس، وترتيب الموجودات عند افلوطين متمايز، لأن الأول

أرفع شأننا من الثاني، والثاني أقل روحانية من الأول، في حين أن الثالث في المسيحية متساو في الجوهر والذات^(٨). ومن الجدير بالإشارة أن أوغسطين ظل بعيداً عن تأثير أرسطو ومدرسته، إذ أن فكره لم يكن يلائم مزاجه فضلاً عن أنه يعتمد على الواقع، ولا يؤمن ولو ظاهرياً - بالحقائق العلوية، التي تعد الأساس الذي يقوم عليه بناء المسيحية المذهبي^(٩).

في بحثه الدائب للوصول إلى اليقين طالع نبهم رسائل بولس الرسول، وكتب المسيحية وأخذ يتفهمها على ضوء ما اهتدي إليه من فلسفات مختلفة، علاوة على تفاسير القديس امبروزو، وكان من نتيجة ذلك أن بدأ يؤمن بالمسيحية وحقائق الدين التي كان رفضها من قبل، وبدأ يعتقد بأن كثيراً من مبادئها يمكن أن يتفق مع العقل، وأجدر أن يؤمن بصدقها حتى إذا لم يستطع العقل البرهنة عليها^(١٠).

وتحكي الروايات أنه ذهب إلى الريف حيث الهدوء والخلوة مع النفس، وراحة الذهن المكثور، وأخذ يراجع حياته، وكيف انحرف عن محبة المسيح، فاتخذ له عشيقاً ولدت له ابناً غير شرعي، وكيف سقط في الرذيلة والأدناس والفصائح، حتى خيب رجاء أمه فيه، وكسر قلبها فلم يقبل العماد حتى الآن، وتذكر نصائحها، ومحاولاتها المستميتة لتعديل سلوكه، وبحثها الدائب عنه في كل مكان، وكيف سافرت وراءه من بلد إلى بلد لتسديده المشورة وتأخذه إلى طريق الخبة، وتبعده عن رفاق السوء وغواية المفسدين، ودنس الشيطان، ودموعها الغزيرة، وصلواتها الدائمة، هي التي أوغزت للقديس امبروزو توجيهه وتعميده، ولما رأى دموعها وحسرتها الشديدة على ابنها طمأنها قائلاً لها: إن ابن هذه الدموع لا يمكن أن يهلك.

انفرد بنفسه يحاورها، أخذ يتأمل كل هذا وهو في صراع عنيف، وجدل عقلي شديد، يقول أوغسطين: "استلقيت على ظهري تحت شجرة تين، تاركاً لدموعي العنان، ففاضت غزيرة، و بكاءً مرّاً بقلب منسحق^(١١). وفي دوامة هذا العذاب ووحشية المدمر. لا عن طريق الحق والصواب واليقين، سمع صوتاً خارجاً من بيت قريب يغني مردداً: خذ واقرأ، خذ واقرأ، فاعتقد أن أبواب السموات قد فتحت له وأن الله قبل توبته، واستجاب دعائه، وأن هذا الصوت أمره أن يصادر من ملكوت السماوات، فتناولت يده رسائل القديس بولس، وقرأ "لا تعيشوا بالقصوف" بكر والمضاجع التي يُستحي منها، والعهر، ولا بالخصام والحسد، بل بالسرور. الرب يسوع المسيح، ولا تهتموا بأجسادكم لقضاء شهوات^(١٢). فانسكب النور في قلبه وافاض السكينة على روحه، وأشرق شعاعاً

غامراً على نفسه، وتبددت دياجير الأوهام التي سيطرت على روحه أعواماً، ودعا إليه اليقين، فاشترى محبة الكنيسة والمسيح، وقبل المعمودية على يد القديس امبروزو، وباع نفسه فداءً للمبادئ المسيحية.

وإذا توقفنا أمام هذه القضية، فعلينا ألا نشكك فيها، أو نحازف برفض حدوثها فالنفوس الطاهرة يلازمها الاحساس بالاثم دوماً، وتشتد بها لحظات الندم، حتى تسمع أصوات أعماقها، ونداء الضمير الحي اليقظ المنبعث من داخلها.

وهذا ماجرى لأحد الصوفية، كما يحكي القشيري، إذ كان الفضيل بن عياض (ت ١٧٨هـ) شاطراً من الشطار، وقاطعاً للطريق، ويروى أنه في أحد صولاته، وهو يرتقي جداراً من الجدران، سمع تالياً يتلو قوله تعالى: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق...﴾ (١٣) فندم وأتاب، وظل يردد: قد آن، قد آن، وعاد إلى الطريق المستقيم وسلك مسلك الصوفية في الزهد والعبادة والتقوى (١٤).

على أي حال عاد القديس أوغسطين إلى جاجسطا، وعاش عيشة الزهد والتقشف عاكفاً على العبادة زاهداً في طيبات الحياة منقطعاً إلى الصلاة دائم الصوم، متأملاً في الوجود، سالكاً مسلك الرهبة، فرسم كاهناً، وظل يدافع عن المسيحية باذلاً عظيم جهوده لكي يجررها من العادات الوثنية التي تسربت إلى كنيسها، ثم سيم أسقفاً، وظل باقي حياته منافعاً عن المسيحية، عاملاً على نشرها، وقد أهله عبقرية الفطرية، وإخلاصه الغيور لواجباته الكنسية ليكون الزعيم الفكري للمسيحية في إفريقيا، لاسيما وقد ظل أسقفاً أكثر من ثلاثين عاماً جاز في أثنائها شهرة طبقت أرجاء الامبراطورية الرومانية (١٥).

وانتهت حياته بعد أن شاهد المأساة الكبرى، إذ أن الغزو البربري، اجتاحت وطنه، ورأى هزيمة مدينة الخير والنور، مدينة الله، أمام جيوش الشر والظلام. وتوفي سنة ٤٣٠هـ.

مؤلفاته:

١- الاعترافات:

يعد من أشهر مؤلفاته، وهو كتاب أقرب إلى التراجم الذاتية، يشبه اعترافات جاك روسو (١٧٧٨م)، والأيام لظه حسين (١٩٧٣م)، وقصة نفس، وقصة عقل

لنركي نجيب محمود (١٩٩٣م) إذ سجل فيه سيرته الذاتية، ومراحل حياته وتعليمه، ورحلاته المتعددة من طاجسقا إلى قرطاجة وروما، وكذلك تطوره الفكري والروحي، من الشك إلى دخوله المانوية، ثم اعتناقه أفكار الأفلاطونية اأحدثة، ثم الاشراف الالهي، ووصله إلى اليقين. وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية، وله شهرة عالمية.

٢- مدينة الله:

وهو كتاب في فلسفة التاريخ، حدد فيه خصائص مدينة الله ومدينة الشر، أو المدينة الأرضية، وكيف أن النصر في النهاية للخير والنور والسلام، وتحدث أيضا عن الفلسفة ورأى أن المسيحية هي الفلسفة الحقيقية.

٣- الرد على الأكلاديميين.

٤- في النظام.

٥- في الحياة السعيدة.

٦- مناجيات.

وهذه الكتب تمثل طوراً في حياة أوغسطين الروحية إذ انتقل في هذا الطور إلى الإيمان حقيقة (١٦).

٧- العديد من المأاورات الفلسفية، ومنها كتاب "المعلم" الذي نشره الدكتور حسن حنفي فضلا عن العديد من المؤلفات الأخرى (١٧).

مجمال لأرائه:

آراء القديس أوغسطين متعددة الجوانب، كثيرة الأبعاد، متسقة في أهدافها. فقد اعتقد أن معرفة الله تعد معرفة فطرية مركوزة في الفطرة البشرية. ولا مجال لتسرب الشك إلى عقل الإنسان في ذلك. وآمن بوجود العالم من جهة قوة عاقلة صانعة مدبرة، أوجدته على هذا النحو من النظام والتناسق.

ويرى أن الوجود الطبيعي والانساني جاء بفضل خيرية الله، فقال: لأن الله خير فنحن موجودون. لذلك رفض نظرية الفيض، كما هي عند أفلوطين وآمن بأن النفس جوهر روحي شفاف مخالف للجسم، صدر عن الله الخالق، وأنها لا تنفس ولا تموت.

وأعتقد أن الشر بالذات لا يوجد في هذا العالم، وأن الإرادة الانسانية خيرة بطبيعتها، وعندما تنحرف عن النهج السوي والطريق المستقيم تصبح شريرة. ومن هذا الاجمال إلى شيء من التفصيل.

فلسفة أوغسطين

١- الله:

تعد قضية وجود الله من القضايا المهمة التي ناقشها أوغسطين باستفاضة كبيرة، وأفرد لها الصفحات العريضة، وعندما توقف أمامها، لم يكن ذلك من أجل تأكيد هذا الوجود، أو اثباته في قلوب المؤمنين، بالطبع لا، لأن اتجاهه الديني العميق، وتجربته الروحية العريضة، جعلته يعتبر قضية الوجود الالهي، حقيقة مقررة من الفطرة البشرية، والعقل الانساني، وفكرة بديهية واضحة بذاتها، نسلم بها جميعا دون برهان، وهذا الوجود أكيد من شك المتشككين، وانكار المنكرين فالله عند أوغسطين، ليس متعاليا على الكون، ولكنه مباطن للكون حال فيه، وللانسان معا، فهو حاضر حاضرا مباشرا.

هذا التصور أو الاعتقاد في وجوده تعالى، ليس تصورا مجردا، أي ليس فكرة عقلية ندرناها فحسب، ونبرهن عليها بحجج ضعيفة أو قوية، أو جدل ممقوت، بل هو وجود حقيقي في النفس، وفي الكون، يراه الناس ويشعرون به من خلال آثاره ونعمه، وهو حقيقة باطنية يشعر بها كل فرد مسيحي^(١٨).

وبالرغم من هذا يسوق أوغسطين براهينه على وجود الله على النحو الآتي:

- البرهان الأول: إن من يتأمل داخل ذاته يكتشف أن بها حقائق عديدة، وعلة ذلك. من الضروري أن يكون من جنسها، فهناك إذن موجود أزلي قادر حكيم وهو الله، فالماهية التي تصورناها عن الله في نفوسنا تقتضي الوجود، ففكرة الله المغروسة في نفوسنا تقتضي وجوده أيضا، فالله إذن موجود^(١٩).

- البرهان الثاني: يتعلق بجمال الكون ونظامه، واتساق مظاهره، وهذا الجمال والنظام يكشف عن موجود قادر فاعل فنان، رتب هذا الوجود على هذا النحو، فكل ما نراه من حولنا من أرض وسما وزرع وماء، وسهول وهضاب ووديان وجبال، كل هذا الابداع في الكون والتغير المستمر والحركة الدائبة داخله.. وهذا النظام الخفي والظاهر، كل هذا يعلن بجلاء، عن وجوده الحي بيننا جميعا^(٢٠).

- البرهان الثالث: يتعلق بالتغير المستمر داخل الكون، فكل شيء يأخذ صورة مضادة له، فمن الحياة يولد الموت، ومن الموت تخرج الحياة، ومن الليل ينبثق النهار، ومن النهار يدخل الليل، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون هذا الوجود هو الذي أعطى الصورة أي وجود علة واهبة للصورة، وهذه العلة هي الله (٢١).

لذلك يتلخص اعتقاد أوغسطين في قوله: أو من لا تعقل، لأن العقل سوف يبدأ دوره بعد الإيمان، لتأكيد فعل الإيمان، فمن يعتقد أن الله موجود عن طريق الإيمان يستطيع أن يرى الله مباشرة عن طريق العقل إذ أن الله هو هذا الوجود الخير والكلي والشامل (٢٢).

صفات الله:

يخلع القديس أوغسطين على واجب الوجود، لك صفات الكمال والجمال والجلال فهو الاسم المقدس، وهو الوجود الكامل، اللامتناهي واللامحدود، الاله الواحد العالم، علما محيطا كليا شاملا للكلية والجزئيات، إذ لا يخفى عليه شيء بل هو يعرف كل شيء "وعلم الله ليس حادثا ولا متعلقا بحادثة دون أخرى وليس يتم الانتقال من فكرة إلى أخرى، وليس علما لما حدث فيه، بل علم لما حدث ولما هو حادث ولما سيحدث، كلها دفعة واحدة وفي حضرة الاله مرة واحدة (٢٣). وهو الأزلي، فليس له بداية والسرمدى فليس له نهاية (٢٤).

وهو الحق العظيم المبدع، وهو الخير بالذات وأفعاله كلها خير، وكلها - كما نرى - صفات ايجابية.

وفي مقابل هذه الصفات الايجابية، ينفي أوغسطين كل صفات النقص والسلوب عن الله، فالله منزّه عن الجسمية، والبعضية، إذ لا يملك أعضاء كبيرة أو صغيرة (٢٥). وبالرغم من حلوله في جميع الأماكن، وحضوره حضورا قويا، خفيا وظاهرا، في كل مكان، ووجوده المتسامي منا ومعنا، إلا أن المكان لا يحدّه بحال من الأحوال، وهو منزّه عن المكان، وهو محيط بالأمكنة وهي لا تحيط به، وهو منزّه عن الفساد لأن الذي يفسد هو أدنى، وأنقص والله أعلى من كل شيء وأكمل من كل الموجودات، وهو أيضا لا يتغير ولا يتبدل لاشكلا ولا حركة (٢٦).

والله سبحانه مريد بارادة، وارادته ذاته، وهو القادر بقدرة وقدرته ذاته، ومن الجدير بالاشارة في هذه المسألة أن أوغسطين يوحد بين الله وصفاته، فلا توجد

صفات خارج الذات يقول: "الارادة والقدرة في الله هما الذات".
وهذا يذكرنا بتوجه المعتزلة فيما بعد بالتوحيد بين الله وصفاته لاسيما كما نرى
عند أبي الهذيل العلاف (ت ٢٣٥هـ) (٢٧).

٣- العالم:

أشرنا سابقا أن أوغسطين لم يطمئن لنظرية الفيض كما هي عند أفلوطين
(٢٧٠م) بل رفضها، وذلك بسبب قولها: بأزلية العالم، وقدم المادة، وأن العالم فاض
عن الله أضف إلى ذلك أن من نتائج هذا المذهب، تقرير وحدة الوجود بين الله
والعالم (٢٨).

لذلك يذهب أوغسطين بعيدا عن نظرية الفيض، لكي يقرر نتائج مضادة تماما
لهذه النظرية. ففي أثناء تأمله في الموجودات: السماء والنجوم والكواكب، والأرض
والبشر، أدرك ادراكا واضحا أن هذه الموجودات مخلوقة من قبل قوة عاقلة، وأن
هذا العالم بكل ما فيه، لم يأت نتيجة مصادفة عمياء، أو قوانين مجهولة، وإنما قد صنع
صنعا محكما، بسبب قوة حكيمة عليا تعلم ماتصنع وماتدبر وتعرف كل ماتفعل (٢٩).
ويتصور أوغسطين حواراً بينه وبين الموجودات: الأرض وما عليها، البحر
وكائناته الحية، رياح الجو ومملكة الهواء، السماء والشمس، والقمر والنجوم،
ويسأل كل هذه المخلوقات: هل أنتم الهى، فتجيبه كلها: "لسنا الاله الذي نتحدث
عنه إن الهك هو خالقنا ومبدعنا" (٣٠).

وهذا الخلق الالهي للعالم تم من لا شيء، ولكنه سبحانه أوجده من العدم. أي أن
المولى عزوجل أخرج المادة من العدم ثم خلق منها العالم. فالمادة لم تكن أساساً ولم
يكن لها شكل ولاصورة، ثم أوجدها فأتى منها بالعجائب المدهلات، فخلق الفلك
والسماء والأرض بكلمة واحدة، هي "كن فيكون".

فالله هو الموجود الخالق من العدم للهولي. ووجود الله هو وجود بذاته، في حين
أن الأشياء وجودها بغيرها، وعلى هذا فهي مختلفة في وجودها عن وجود الله
تماماً (٣١).

ويميل أوغسطين إلى تقرير فعل الخلق الذي تم في ستة أيام كما هي في الكتب
المقدسة (٣٢). لكنه يميز تمييزاً واضحاً، يمتنع معه اللبس والغموض بين الزمان الالهي
اللامتناهي، والزمان عند البشر المعدود، إذ أن الله هو خالق الزمان، ولازمان قبله،

وهو الذي صنع كل الأزمنة، وهو فوق الأزمنة. ويرى أوغسطين أن الله يتصف بصفات الكمال والجمال والخير، لذلك فالعالم موجود، ثم يخلع هذه الصفات نفسها على الموجودات لكن مع الفارق في تعيينها في هذا العالم الحسي، عكس العالم الإلهي، فيما أن الله موجود - وجدت الأشياء من العدم، ولأنه جميل كانت الأشياء جميلة، ولأنه خير كانت الأشياء خيرة^(٣٣). فالعالم فيض من خير الله، ودليل على إرادة الله، ومرتب حسب عقل الله^(٣٤).

وينكر أن يكون هذا الكون يتحرك هكذا بلا رعاية، أو عناية، أو بلا هدف أو غاية، كما ذهب إلى ذلك أرسطو^(٣٥) (٣٢٢ ق.م) ومن بعده أبيقور^(٣٦) (٢٧٠ ق.م) وإلا سقط في الهاوية وجرى عليه الفساد، وأصابه الفناء والعدم. ولكن هذا الكون موصول الصلة بالله من خلال عنايته به، فهو يرعى كونه المخلوق، ومدة لا ينقطع أبداً عنه وكل شيء داخل من الله الكامل الأزلي، وهو يتحرك بواسطة القوانين الإلهية السارية داخله^(٣٧).

وآراء أوغسطين في هذه القضية، تتفق تماماً مع ما قدرته الفلسفة الرواقية قبل ذلك فالله عندما خلق العالم وهو مبطن فيه وليس مفارقاً له، وهو عقل مدبر يكلاً بعنايته كل شيء في العالم^(٣٨).

٤- الزمان:

في بداية تناوله لمشكلة الزمان^(٣٩). يقف أوغسطين أمام هذه المشكلة السهلة الممتعة حائراً متزهداً، فهو يعرف ما الزمان، ولكنه لا يستطيع أن يشرحه أو يحلل أبعاده، أو يقدم له تعريفاً مانعاً على حد تعبير المناطقة، ويتحير في ذلك قائلاً: "إن لم يسألني أحد عنه فإنني أعرفه، أما أن أشرحه فلا أستطيع"^(٤٠). ومع هذه الصعوبة التي يواجهها، فهو لا يني محاولاً جادة ورائعة، لتقديم تحليل مقنع لطبيعة الزمان، وتصور شامل له فينظر إليه نظرة كلية مستوعبة ويخرج من كل هذا برؤية واضحة لطبيعة الزمان وأبعاده.

يرى أوغسطين أن الزمان وحدة متصلة مترابطة، يتكون من الماضي والحاضر والمستقبل. هذا ما يترأى لنا، ولكنه يتعمق هذه "الآنات الثلاث" المكونة للزمان، فيرى أننا لا نملك الماضي لأنه ولى وانتهى، وماتت آناته من الوجود، والمستقبل لم يأت بعد فهو مازال يعيش في عالم السر والخفاء، ولا نستطيع أن نعرف بوجود زمان إلا

بالحاضر الذي هو ملك أيدينا. وما هو الحاضر إلا هذه "الآن" اليتيمة التي ليس لها ماضي ولا مستقبل فهي التي تأتي إلى الوجود ثم تختفي وتوَلَّى في التوَلَّى.

ثم يناقش فكرة أن هذا الوقت طويل أو قصير، فينفي وصف الماضي بالطول أو القصر فيقول: لا يجوز أن نقول كان الماضي طويلاً، لأن اللحظة المعيشية قد انقضت وانمحت من الوجود، فلم يعد لها وجود نابض، فكيف نصفها بالطول أما الذي يجوز وصفه بهذه الصفة فهو الحاضر، لأنه مازال مستمراً في الآن، فنقول: كان الحاضر طويلاً، وهي صفة ملازمة له لأنه حي يعيش بيننا، ولم يضع ويندثر في اللاوجود. وما أن ينقضي ويتحول إلى الماضي تزول عنه الصفة مباشرة.

ويدلل أوغسطين بجميع أنواع الأدلة، ويسوق العديد من الحجج على صحة وجهة نظره، في أن الزمان يتكون من وحدات ثلاث، لانملك منه إلا الحاضر فقط.

فيقول: لو تصورنا أن أمامنا مائة سنة حاضرة، فسوف لانرى منها إلا سنة واحدة أولى، وإذا فرضنا أنها هي الحاضرة، والباقي مازال مستقبلاً لاجود له ثم نظرنا إلى السنة الثانية، فسنجد أن الأولى قد مضت، والثالثة مازالت في عالم الخفاء أيضاً وهكذا، ثم أخذنا السنة الأولى نفسها وقسمناها إلى أجزاء، أي إلى شهور والشهور إلى أسابيع، والأسابيع إلى أيام، ثم إلى ساعات، والساعات مؤلفة من دقائق وثواني، والحاصل أننا سوف نجد في النهاية أننا لانملك من المائة سنة إلا هذه الثانية فقط التي مازالت حاضرة. أما ماضى فقد انصرم واختفى في اللاوجود، والباقي لم يأت بعد، ولم يزل جنيناً لم يولد، ومن ثم فكلاهما غير موجود الماضي والمستقبل، والملموس الدفاق هو الحاضر^(٤١).

ومن كل هذه التحليلات، والوقفات، يخلص إلى أن: "لاوجود للمستقبل ولا للماضي ومن الخطأ القول بوجود ثلاثة أزمنة، الماضي والحاضر والمستقبل، والأصح أن نقول: في الكون أزمنة ثلاثة: حاضر الماضي، وحاضر الحاضر وحاضر المستقبل، هذه الطرق الثلاث موجودة في عقلنا، ولا أرى لها وجود إلا فيه، فحاضر الأشياء الماضية هو الذاكرة، وحاضر الأشياء الحاضرة هي الرؤية المباشرة، وحاضر الأشياء المستقبلية هو الترقب"^(٤٢).

ومن الواضح للعيان أن الزمان عند أوغسطين في التحليل النهائي، لا يوجد خارج ذواتنا وليس له وجوداً مستقلاً عنا بل وجوده داخل مشاعر الإنسان، متمثلاً ثلاث قدرات للنفس الانسانية: قدرة الذاكرة على استرجاع الماضي والقدرة على الانتباه والتركيز في مجريات الشعور، والظواهرات التي تمر بنا الآن في الحاضر، ثم

القدرة على التوقع، وانتظار ما يسفر عنه المستقبل المجهول (٤٣).

والحقيقة أن رأي أوغسطين فيه دقة وعمق، واحاطة وشمول، وقد أصاب كبده الحقيقة فهو ينظر إلى الزمان من خلال تأثيره في الإنسان، وانعكاسه على مشاعرنا وانفعالاتنا ووجودنا الذاتي جملة، ونحن جميعاً لانملك من الزمان إلا اللحظة التي نعيشها ونتنفس فيها، ونستمتع بها، ونمارس فيها حياتنا بجميع أشكال الممارسة اليومية من خلال هذا "الآن الفريد الذي ليس له ماضي وليس له حاضر، ومن خلال هذا المجموع من "الآنات" يتكون الزمان الشعوري عند الإنسان، فهو لا يملك الزمان ولكن يدركه باحساسه وشعوره، ويدرك ماضيه بالتذكير حينما يستعيد كل "الزمان الماضي" من خلال الذاكرة أو العقل، وهو يدرك أيضاً مستقبله من خلال الأمل والحلم والتوقع، أو تحطّي الحواجز بقدرة العقل على التصور، فيعيش في مستقبله دون أن يأتي، بل يمارس أحياناً حياة خيالية في هذا المستقبل. أما الموجود المدرك المعيش وهو الحاضر بعينه الذي نملكه وندركه في آن واحد قبل أن يفلت من أيدينا.

ولذلك نحن لانملك إلا زماناً واحداً هو الحاضر، وندرك زمنين هما الماضي والمستقبل دون أن نملكهما.

٥- النفس:

النفس موجودة وجوداً دائماً، حياً وفعالاً للوجود الانساني، هذه قضية مسلم بها، إذ هناك شيء ما وراء هذا الجسم المحسوس. وكل منا يدرك تمام الإدراك عن فهم واقتناع أن هناك قوة أخرى خفية تحرك هذا الجسم البادي للعيان. ومن خلال تأمله الطويل، وتساؤله الدائم، وبحسه المتعمق، يصل أوغسطين إلى دليل واضح وقوي، على وجود النفس، يعتمد على تحليل مفهوم الإنسان وطبيعته، الذي يشمل جانبان: الإنسان الخارجي، والإنسان الباطني، وكلاهما يتميزان تمام التمايز عن بعضهما البعض.

فالأول: يتميز بأنه ظاهر محسوس مرئي له طول وعرض ومتحيز في مكان وله حواس يطل بها على العالم الخارجي، لكن يدرك بها الموجودات المادية.

والثاني: يتميز بالفكر والعقل والارادة، وهي جميعاً قوى خفية غير مرئية باطنة في "جوانية الإنسان، مدركة للمجردات والعقليات، وموجهة لأفعال الإنسان

الخارجي، وهي تعرف وتعقل العالم الخارجي بواسطة الحواس الباطنية، "إننا نتحدث إلى أنفسنا داخليا دون اصدار أي صوت وتفكيرنا في الكلمات فحسب وعندما تنشط الكلمات المخزونة في الذاكرة تظهر الأشياء نفسها في النفس" (٤٤). والانسان الباطني أفضل من الانسان الخارجي، أي أن النفس أفضل من الجسد وأثنى منه لأن الفكر هو الذي يحرك الجسد، فالنفس أمرة والجسد مأمور.

يقول أوغسطين في عبارة موجزة بليغة وهو بصدد التدليل على وجود النفس: "عدت إلى نفسي وقلت لها: وأنت من أنت؟ وأجبت: أنا انسان في خدمتي نفس وجسد، احدهما خارجي والآخر باطني" (٤٥).

ويلخص الدكتور مذكور برهنة أوغسطين على وجود النفس فيقول: "ذهب إلى ان الجسم والنفس حقيقتان متميزتان تمام التمايز، ففي حين أن الأول يشغل حيزاً وله طول وعرض وعمق، لاحتيز للثانية مطلقاً وخاصتها الوحيدة هي التفكير. ومن أجل هذا كان شعورنا بها وإدراكنا لها مباشراً، فإن الفكر لا يحتاج إلى واسطة في فهم ذاته. وما دامت النفس مفكرة فهي موجودة، لأن تفكيرها يساوي وجودها تمام المساواة، وقد يستطيع الانسان أن يتجرد عن جسمه وعن العالم الخارجي في كل مظهره، وأن ينكر الحقائق على اختلافها ويشك في كل شيء، إلا نفسه التي هي مصدر شكه ومبعث تفكيره فإنه لا يجد إلى الشك فيها سبيلاً" (٤٦).

ويذهب أوغسطين إلى أن النفس، جوهرة روحانية، وهذه خاصية أساسية من خصائصها بسبب تميزها عن الجسم المادي، وهي قضية سلم بها الكثيرون من الفلاسفة اليونان والمسلمون، وأولهم أفلاطون وأفلوطين وابن سينا وبعض من متكلمي الاسلام. وبالرغم من تسليم أوغسطين بروحانية النفس إلا أنه يرفض مقولة أفلاطون من قدم النفس ووجودها في عالم المثل، ثم سقوطها في الجسد بفعل الخطيئة كما صورها في محاوره فايدروس (٤٧).

ورفض أيضا قول أفلوطين بقدوم النفس ووجودها السابق في العالم العلوي ثم هبوطها إلى العالم السفلي بسبب الخطيئة وأنها فاضت عن النفس الكلية التي فاضت بدورها عن العقل الفعال حيث تقع في المرتبة الثالثة من فيض الموجودات، وتحوي كل المعقولات التي تفيض عليها من العقل الفعال (٤٨).

ويذهب في تقسيمه للنفس إلى التقسيم الثلاثي الأفلاطوني الشهير فيقسمها إلى نفس عقلية، ونفس غضبية، ونفس شهوية.

ويرى أوغسطين أن النفس مخلوقة حادثة من الله الذي قدر لكل جسما نفسا

تحل فيه، وتسيطر عليه وتوجهه، وبما أن النفس جوهر روحاني لا يسري عليه الفساد ولا الفناء، ولا يدركه العدم، فهي إذن خالدة (٤٩).

٦- الحرية الانسانية:

تعد مشكلة الحرية الانسانية من أعقد المشاكل التي فرضت نفسها على التفكير البشري منذ وعيه وإدراكه ومحاولة فهمه لاسرار هذا الوجود. لذلك ساهمت معظم الحضارات في تقديم حلول متعددة لها. ومن البديهي أن أوغسطين لم يغفل بحال مشكلة كهذه هامة وخطيرة دون أن يناقشها ويدقق فيها، ويطرح لها الحلول العملية التي تتفق والعقل الانساني، منحاذاً - في نهاية المطاف - لحرية الإنسان، لاسيما وهو يرى "شهادة واضحة جداً لهذه الارادة الحرة في كل نصوص الكتاب المقدس" (٥٠).

وموقف أوغسطين واضح كل الوضوح، فهو يقرر حرية الإنسان صراحة ودون أدنى غموض، فالإنسان له ارادة فاعلة، مدبرة، يريد أو لا يريد، يختار أو لا يختار، يفعل أو لا يفعل، فالارادة هي القدرة على اختيار الأفعال، وفعل الارادة هو نفسه فعل الحرية، وهذه الارادة الصلبة التي تتغلب على العوائق - فتتصر أحياناً وتصل إلى بغيتها، وتهزم أخرى ولا تحقق أهدافها - هي التي توصلنا إلى الله، وتؤكد وجوده دوماً.

ويدلل أوغسطين بأدلة عقلية كثيرة على هذه الحرية التي نلاحظها في حياتنا ونذكرها بأفعالنا:

- فالتكليف الالهي للإنسان الذي يتضمن مجموعة الأوامر والنواهي، أفعل ولا تفعل، لا تقتل لا تسرق، لا تزني، هي أؤكد الأدلة على قدرة الانسان على اطاعة الأوامر، واجتناب النواهي، والتكليف في حد ذاته متضمن مبدأ الحرية، وإلا فيما التكليف إذا لم يكن الإنسان مستطيعاً لتنفيذ الأمر الالهي والتكليف الشرعية.

- الثواب والعقاب، كنتيجة محققة للتكليف، فالذين ينفذون الأوامر، وينصاعون للطاعة، ويفعلون الخيرات، ينالون الثواب متمثلاً في الجنة، والذين يولون وجوههم بعيداً عن الخير وينغمسون في فعل الشر وعصيان الأمر الالهي يعاقبهم الله - عز وجل - بعذابه الشديد.

- شهادة العقل، فكل انسان يستطيع أن يميز بين أفعاله الاضطرارية

والاختيارية، ويدرك في أعماق نفسه أنه قادر على هذا الفعل، وقادر على ترك مثيله، والجدال في ذلك لغو فارغ "إذا لم تكن الإرادة التي بها أريد ولا أريد ملكاً لي، فلست أدري ما الذي أستطيع أن أقول عنه أنه ملك لي".

ويقول أوغسطين: "لقد كنت قادراً مبدئياً أن أقوم بالأعمال وألا أنفذ عملياً لو لم تطاوعني أعضائي. ولو لم أرد أن أعمل كل ما يوسعي. ولم أعمل ما كنت أتوق إليه ولا قدرت أن أعمل حين أردت أن أعمل، إنما حسبي أن أريد شيئاً بإرادة صحيحة حتى أحقق ما أريد، الإرادة والقدرة على التنفيذ أمر واحد" (٥١).

ويقف أوغسطين أمام علاقة النفس بالجسد لكي يحلل طبيعة هذه العلاقة متأملاً خضوع الجسد لأدنى إشارة تصدر إليه من النفس فيقوم بتنفيذها، والانصياع لها، أفعل فيفعل، حرك هذا العضو فيحركه، سكن هذا العضو فيسكنه.

أما النفس فلا تخضع لذاتها ولا تطاع من قبلها. ويعمل أوغسطين ذلك، بأن الجسم الإنساني يتكون من عنصر مادي فهو أقل درجة من النفس ومن ثم فهو مأمور، وخاضع لها خضوعاً كاملاً، والنفس عنصر روحاني، أعلى درجة من الجسم، إذ أنها من عالم آخر أسمى من عالم الماديات ومن ثم فهي أمرة.

أضف إلى ذلك، أن توجهات النفس متعددة، وميولها مختلفة ورغباتها متباينة، لذلك فهي "لا تريد إرادة كاملة ولا تأمر أمراً كاملاً، لكنها تأمر بقدر ما تريد، ويقدر ما لا تريد، لا ينفذ أمرها" (٥٢).

ويضرب أوغسطين مثلاً لذلك، فيرى أن شهوات نفسه ورغباته، والخطيئة التي وقع فيها كل ذلك قد تم بإرادته الحرة، واختياره الصريح، وهذا كله من منطلق طبيعته البشرية التي تتكون من العنصرين السابقين، الأمر والمأثور أو النفس والجسد. وما يجدر الإشارة إليه أن هذه الحرية الإنسانية الفاتكة التي يمتلكها الإنسان لا يمكن فصلها عن الحرية الإلهية، كما يرى أوغسطين، فالعلاقة بينهما علاقة اشتمال كما يقول المناطق، فالأولى أخص والثانية أعم، الأولى: متناهية ومحدودة بإمكانياتها القاصرة، والثانية لامتناهية ولا محدودة، فالرب خالق الكل، لذلك لاسبيل إلى تبرير الحرية الإنسانية تبريراً كاملاً إلا إذا سلمنا تسليمًا غير مشروط بأنها مستمدة من الحرية الإلهية (٥٣).

وبعبارة أخرى يقرر أوغسطين: حرية الإرادة، ويوفق بينها وبين العقل الإلهي فيقول: كان في علم الله الأفعال الحرة للإنسان فهي باعتبارها معلومة لله قد وجدت في الفعل الأول، وباعتبارها تصدر عن الإنسان باختياره تعتبر اختياراً من جانب

الإنسان^(٥٤). فضلا عن النعمة الالهية التي هي عون للإنسان، أو التي تبشر الأفعال الانسانية فتباركها وتقودها إلى بر الأمان، فهي ملازمة تماما لجميع الأفعال الخيرة الصادرة عن الانسان^(٥٥). والحقيقة أن النعمة الالهية عند أوغسطين تماثل "اللطيف الالهي" عند المعتزلة إذ اللطف عندهم، عون إلهي يأتيه الله للإنسان على سبيل المنحة والكرم والتعطف ويوصف بأنه توفيق إذا وافق أمر الطاعة من العبد، وأنه عصمة من الله إذا امتنع المكلف عن المعصية وتوقف عن اتيانها^(٥٦).

وليس بالضرورة الذهاب إلى القول بتأثر المعتزلة بأوغسطين، وذلك لأن استجابة العقل الانساني للقوة الكونية الجبارة المسيطرة على الكون، تكاد تكون متشابهة في نتائجها وفي أساليب التعبير، وطرق الافصاح عن تلك الاستجابة. فالضعف الانساني المائل لكل عاقل أمام مظاهر الطبيعة القوية والفتاكة والمدمرة، تدفعه دائما وباستمرار إلى استمداد المدد من القوة الخفية الظاهرة التي تقف وراء هذا الكون، وطلب المعونة بشكل دائم وهذا مانراه عبر العصور وفي كل الحضارات، أي توجه الانسان إلى الله يطلب منه العون فيفيض عليه خيره العميم.

زد على ذلك أن الآيات القرآنية حافلة بذلك، ومعبرة بأوضح أسلوب، أن الله أقرب للإنسان من نفسه التي بين جنبيه، وهو الهادي للرشاد، وللطريق المستقيم فهو محقق الرجاء، ومجيب الدعاء للمضطر إذا دعاه "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون" (سورة البقرة الآية ١٨٦).

٧- الخير والشر:

تعد مشكلة الخير والشر من المشاكل العويصة التي واجهها الانسان على مر تاريخه الطويل، ووقف أمامها متأملا متسائلا: كيف نفسر هذه الشرور التي يعج بها العالم؟ ومن الذي خلقها؟ وإلى من تنسب؟ تعددت الاجابات بتعدد الحضارات، واختلفت الآراء باختلاف وجهات نظر الفلاسفة.

هذه المشكلة أقضت مضجع القديس أوغسطين - صاحب القلب الطيب، والضمير النقي، والنفس الشفافة - وحيرته حيرة شديدة، وأثقلته بأنواع من الوسواس والشكوك، وملأت نفسه ضنكا وتعذبا على حد تعبيره^(٥٧). وظل وقتا طويلا يبحث عن مصدر الشر، وتساءل: كيف وجد الشر في العالم، وهل ينسب

إلى إرادة الإنسان وأنها هي التي أخرجته من العدم إلى الوجود، لكن من الذي صنع هذه الإرادة على هذا النحو، إنه الله الذي يصنع الخير والحب والعدل والكمال؟ هل الشر يرجع إلى الشيطان، ومن الذي وهبه هذه العداوة الشريرة التي جعلته شيطانا طالما أن الله خلقه ملاكا وديعا (٥٨)؟

كيف دخل الشر إلى الوجود، ومن الذي خلقه؟ إذا كان الله هو الخير المحض والذي يفيض خيره على الوجود، وهو صالح، وبما أنه كذلك، فكل مخلوقاته خيرة وصالحة أيضا. إذا أين يوجد الشر؟

إن لم يكن موجودا، فلم نخاف مالا وجود له ونخشاه؟ إن خوفنا في حد ذاته شر حقيقي لأنه لا مبرر له. وأما أن يكون الشر موجودا.

ولكن يبقى السؤال كما هو، وتظل الاشكالية بلا جواب، ومن أين يأتي الشر طالما أن الله ذاته صالح وخلق كل شيء صالح أيضا؟

كانت توجهات أوغسطين لحل المشكلة متعددة، بعد أن استعصى عليه الحل. وأظلمت أمامه السبل. فلجأ إلى المانوية لعله يجد تفسيراً مقبولا، إذ ترجع الشر إلى إله الشر والظلام.. كما أن الخير يعود إلى إله الخير والنور.

إلا أن أوغسطين لم يطمئن لهذا الحل ودخله شك كبير فيه، ورأى أن هذا التصور بدعة فلسفية، تريب النفس أكثر مما تدخل الطمأنينة عليها، فولى وجهه ثانية شطر أفلوطين، وعكف على دراسة فلسفته لاسيما قوله بفيض الموجودات الصادرة عن الله، فوجدته يرجع جميع الشرور في هذا العالم إلى المادة التي تأتي في نهاية الفيض، فهي مصدر الشر.

ولم يقتنع أوغسطين لأن الموجودات إذا كانت صادرة كلها عن الله وفائضة عنه، وهو خير محض، وفيه كل صفات الكمال والبهاء والجمال. فكيف تلبست المادة بالشر؟

كان أوغسطين على ثقة كاملة أن الله ليس هو مصدر الشر بحال من الأحوال، فهذه قضية بديهية لا تحتاج إلى دليل، فالله مصدر كل عدل، وهو مبدع الأشياء ومنظمها ومنسقها ماعدا الخطيئة (٥٩).

يقول أوغسطين "طالما أن الشيء موجود فهو خير، وكل موجود خير، والشر الذي كنت أبحث عن علته ليس جوهرًا، إذ لو كان جوهرًا لكان خيرا، أما أن يكون جوهرًا لا يقبل الفساد، ومن ثم فهو خير عظيم، أو أن يكون جوهرًا قابلا للفساد

وهذا تناقض، هكذا أدركت أن أعمالك كلها خير، والشر لا ينسب إليك (٦٠).

وهكذا، بعد تفكير عميق، وتدبر طويل، وجد أوغسطين نفسه وجها لوجه أمام الانسان، وأشار اليد بأصبع الاتهام، إذ من الضروري أن يكون هو مصدر الشر وفاعله، لأنه الوحيد من بين جميع المخلوقات، الموجود العاقل المفكر المدبر الواعي والمتوتر المبدع، الذي يمتلك ارادة حرة، تميز بين الأفعال ويصنع بواسطتها الخير والشر، ومن ثم يحاسبه الله حسب أعماله.

ولكن هذا الحل السهل سيطرح سؤالاً آخر. كيف وهبنا الله حرية تخطئ وتفعل الشرور أليس هو الذي صورنا في أحسن صورة ؟

الحقيقة في تصور أوغسطين، أن الارادة خيرة من حيث هي قدرة على الاختيار، وهي رديئة شريرة حين تكون على غير ما ينبغي أن تكون، ومعنى ذلك أن الشر قائم في داخل العالم ينبع أساساً من الارادة الانسانية نفسها (٦١).

فالخير هو السير على مقتضى القانون الالهي، أما الشر فهو مخالفة هذا القانون، فالخير شيء بالفعل. أما الشر فلا يمكن أن يعتبر وجوداً حقيقياً، بل هو سلب محض، أي أن الشر هو سلب للخير، أي سلب للنظام، ولهذا فإن علة الخير هي علة فاعلية في حين أن الشر علة نقص، فالخير شيء ايجابي وجودي، والشر نقصان وعدم (٦٢). يقول: " فتشت عن أصل الشر فلم أجده جوهراً بل فساداً في الارادة التي تنحرف عن الذات السامية - عنك يا إلهي - إلى ماهو دنئ فتفقد صوابها" (٦٣).

ويقول في نص آخر: الخير في أنت صنعته وأعطيته والشر صنعني" (٦٤).

وهكذا يضع أوغسطين حلاً عقلياً مقبولاً لمشكلة الشر، ويرجع نسبة الشرور إلى الارادة الانسانية التي تنحرف عن منهج السماء، وقوانين الدين وأوامر الله وبهذا الحل يؤكد قيمة المسؤولية الملقاة على عاتق الانسان ويرز أهمية الثواب والعقاب.

ثم يدور الزمن دورته، وتعيد فرقة المعتزلة، النظر في المشكلة وتصيغ هذا الرأي ثانية من وجهة نظر اسلامية، فهي تؤكد أن الله تعالى منزّه عن أن يضاف إليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية، لأنه لو خلق الظلم لكان ظالماً، وهو لا يفعل إلا الصلاح والخير والعبد هو الذي يخلق الشر ومن ثم يستحق على مايفعله ثواباً وعقاباً في الدنيا والآخرة (٦٥).

وجدير بالإشارة أن منهج المعتزلة في حل مشكلة الشر كان منهجاً اسلامياً خالصاً، معتمداً بالدرجة الأولى على القرآن والسنة وعلى نور العقل وقوة البرهان، ودليل الفطرة وبصيرة القلب، وصدق الحدس العقلي الانساني.

٨ - السعادة:

في بحثه عن السعادة، يعود أوغسطين إلى الذاكرة يستبطنها ويبحث عن محتوى الفكر المخزون في العقل الانساني، ليتبين الكثير من الأفكار المستقرة في أعماق الذاكرة من صور الأجسام، وماهيات الأشياء والمعارف والمعلومات والعواطف والانفعالات ومن مجمل هذه الأفكار يعثر على فكرة السعادة، ويتأكد له من خلال تحليل مخزون الذاكرة، ان هذه الفكرة تعيش في ضميره، كما تعيش في ضمير البشر جميعا، واننا ساعون للبحث عنها تواقون للحصول عليها.

ويرى أن من أدلة وجود السعادة، سعي البشرية المتواصل والدؤوب ليلها والظفر بها بعد أن وجدوها فكرة حية تملأ عليهم حياتهم، وتأخذ بمجاميع قلوبهم، وتسيطر على عقولهم. يقول: "انه لشئ يعرفه الجميع ولو قدر لنا أن نسألهم سؤالاً واحداً: أيرغبون في السعادة؟ لأجابوا بالاجماع ودون تردد، نعم. فلو لم تكن ذاكرتهم مخنطة ببعض الشيء من هذه الحقيقة التي يصبون إليها لكان إجماعهم مدعاة للشك.. أجل كلنا نريد أن نكون سعداء" (٦٦).

ويربط أوغسطين بين السعادة وبين المعرفة الالهية، فالبحث عن الله - الموجود الكامل الخير، والوصول إليه ثم تلقى الفيض منه: هو السعادة بعينها التي لا يضارعها سعادة. فكما أن الجسد المادي يستمد وجوده من النفس، كذلك النفس البشرية تستمد وجودها، وحياتها، ونورها وفيضها من الله "يا ليتني أبحث عنك لكي تحيا نفسي لأن جسدي يحيا بنفسي، ونفسي بك" (٦٧).

فالسعادة الحققة هي الاستمتاع بالحقيقة المطلقة التي هي الله.

السعادة بالله هي غبطة حقيقية، وفرح عام هي السرور الكامل، هي أن يفرح الإنسان بالمعاني الروحية، وكل ما عدا ذلك فهو وهم، فكل توجه ينحرف عن هذا الطريق هو سراب، وكل من يتصور سعادة سواها يسعى في اثر فرح زائل مخالف للحقيقة.

يقول أوغسطين: "حاشا لقلبي، حاشا لقلب عبدك الذي يعترف لك أيها الرب أن يفكر بان كل سرور يصيره سعيداً، هناك غبطة لاتوهب للأشرار، بل للذين يخدمونك حيا بك وأنت هو تلك الغبطة. والسعادة هي أن يفرح الانسان بك ولأجلك وبسببك، أجل تلك هي السعادة ولاسعادة سواها" (٦٨).

إن السعادة التي يشدها أوغسطين هي سعادة نظرية تأملية ذوقية قلبية! والوصول إليها يتلخص في طريقين:

الأول: نظري تأملي عن طريق التفكير في المخلوقات حتى يصل الإنسان إلى معرفة الله.

والثاني: عملي، إذ يتمرد الإنسان على أغلال الجسد التي تشده إلى الأرض، ويتحرر من جميع قيوده، ومن طغيان الشهوات، لكي يخلق معه في آفاق العالم العلوي ويطوف بملكوت السموات. فالسعادة بعد النظر والتأمل والتفكير، طريقها الخلاص البدني لكي تصل إلى عالم النور، ومن خلال هذه المعرفة الاشرائية تتجلى الأنوار الالهية في النفس البشرية، ويعمها الفيض الالهي.

فالسعادة هي فرحة بالله أي من خلال البحث عنه ثم الوصول إليه ومعرفة وجهه، وهي فرحة من أجل الله وبسببه، أي من خلال التوجه الديني والتمسك بمبادئ المسيح والهجرة إلى عالمه السماوي، ومن خلال تطبيق التعاليم الدينية والتمسك بالفضائل والمثل العليا، والعبادة المتواصلة، والذكر الدائم، والتوجه إليه بالفكر المستمر، وربط القلب به ومن ثم تشرق الأنوار الالهية.

هذه السعادة النظرية سوف نجد لها نظيراً فيما بعد عند صوفية الاسلام. الذين تقللوا من ماديات الحياة، وتحرروا من قيود الأرض، ومن رغبات الجسد: من مأكول ومشرب وملبس وغيرها، وعكفوا على العبادة وزهدوا في طيبات الحياة وتجاؤوا عن دار الغرور، وأنابوا إلى دار الخلود، وتوجهوا بكليتهم، حواسهم ومشاعرهم وعقولهم وقلوبهم، وباجملة بكل ذواتهم إلى الله. ومن ثم يغمرهم الفيض الالهي وتشرق الأنوار على نفوسهم، ويتذوقوا طعم القرب من الاشراقات الالهية. ولاشك أن الامام الغزالي (ت ٥٠٥هـ) بسيرته العطرة وحسه الديني، وجهاده في سبيل الدفاع عن مبادئ الاسلام، ومنهجه المشهور يمثل أعظم تمثيل صورة الصوفي المسلم^(٦٩). وهو هنا يناظر القديس أوغسطين، وهما يتشابهان في أن كل منهما قد وهب حياته في الدفاع عن دينه وبسط عقائده وشرح مفاهيمه والاعلاء من شأنه. وكلاهما يسير على درب المعرفة الذوقية، والنور الباطني الذي ينبعث من الأعماق بسبب الحب الالهي الذي يغمر الصوفي ويحوّله إلى خيال يقف في محراب الله.

٩- خاتمة:

في الخاتمة نستطيع أن نرصد مجموعة من النتائج:

١- إن سيرة حياة القديس أوغسطين كانت تجسيدا حيا لمبادئه، وانعكاسا حقيقيا للفلسفة التي اعتنقها، ومرآة صادقة للعقائد التي آمن بها بعد أن دخل حياة المسيحية واعتقد اعتقاداً كاملاً بصدق الكنيسة والمسيحية. "إن المنحى الفلسفي والزخم الروحي اللذين نفخ بهما في الفكر المسيحي هما بدون شك أكثر أهمية أيضاً، إذ أن الأمر يتعلق هنا بوثة سوف تدعم بقوتها إلى حد كبير، الفكر الوسيطى بأجمعه (٧٠).

٢- اتسمت آرائه بالاعتدال والتوسط، والبعد عن التطرف أو الغلو في الآراء، والاعلاء من قيمة المعرفة الباطنية، والنور القلبي، مع عدم الاجحاف بدور العقل في ديننا ودنيانا، أي أنه آمن بصدق النور القلبي والنور العقلي.

٣- تعد فلسفته فلسفة ايجابية من نواحي عديدة:

أ- فهو يؤمن إيماناً فطرياً قلبياً - ثم عقلياً - بوجود قوة جبارة تقف وراء هذا الكون، هي التي خلقتة وأوجدته من العدم، وبثت فيه النظام، وأبدعت صورته، ونسقتة على أفضل نحو.

ثم يؤكد هذا الايمان الفطري بالحجة القوية، والدليل اليقيني والبرهان الساطع. ومن ثم يأخذ بأيدي الحيارى، والمتشككين، لكي يدهم على الطريق السوي ويرشدهم إلى معاله، ويفتح أعينهم على نور الرب، ويهدي قلوبهم إلى الإيمان الحقيقي.

ب- ولأنها تحمل الانسان - ككائن حي عاقل مفكر - مسؤولية عمله بلا تهاون معه فهو رب أفعاله، ومسؤول عن اختياره، فكل فعل صادر عنه، وكل حركة تبدر منه وكل قول يتلفظه، مسؤول عنه، فهو مقرر مصيره، ومسؤول أمام الله الديان مسؤولية كاملة غير منقوصة. فهو الذي سيحاسبه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ومن ثم فهذه الفلسفة تدفع الناس إلى الجد والعمل وعدم التهاون في شؤون الحياة وتحثهم دوماً على الأخذ بالأسباب، والإيمان بالسنن الكونية والعمل على الارتقاء بالحياة والوصول إلى مراقي الكمال.

ج- وكذلك هي فلسفة ايجابية، إذ تنفي نسبة الشرك إلى الله، وتقرر أن

الشرور عارضة في حياتنا، فالخير هو الجوهر والثابت والباقي، والشر أمر عارض نسبي يظهر ثم يختفي مثل بخار الصباح. ثم يؤكد على أن الأعمال البشرية الحرة هي التي تأتي بالشر إلى الوجود، ورغبات الإنسان وطموحه، ودوافعه المتباينة هي التي تجعله يتكسب الطريق، فيورد نفسه موارد التهلكة، فيكسب العالم ويخسر نفسه التي بين جنبيه، فهو فاعل للخير والشر معا.

د- هي فلسفة دينية إيمانية، لأنها تعتمد في الأساس على مبادئ المسيحية وعلى عقائدها المقررة، كما وردت في الأنجيل، فهو متمسك بالنصوص المقدسة. مع أعمال العقل فيها كي يستخلص منها الغايات المرجوة والأهداف النبيلة، والمقاصد الحسنة.

هـ- وهي فلسفة تفاؤلية، لأنها باحثة عن مطالب الإنسان وتوجهاته وتعمل على تحريره من الألم والشقاء، وتمنيه بالمستقبل المشرق، ونسيان الماضي المؤلم، وأن يعيش حاضر الحاضر الذي يملكه - إذ لا يملك غيره - ويحقق فيه ذاته، ويسعى إلى نشدان السعادة التي هي أمل الناس جميعاً.

٤- ومن هذا كله يأخذ أوغسطين بيد الإنسان المعذب في هذه الحياة، والذي يقاسي من ويلاتها، لكي يرشده إلى السعادة الحقيقية، والغبطة الأبدية فيحدد له معالم الطريق، ويطلب منه أن يسيطر على شهواته العارمة، ويجاهد مجاهدة الأتقياء، ويصبر صبر الفقراء، ويتحلى بحكمة الحكماء، ويصبر بنور الصوفية الأنقياء. حتى تستطيع روحه أن ترقى إلى عالم النور، وهناك سوف تنكشف أمامه الحقائق الربانية الأزلية، ويسعد بالتجليات الإلهية، والفيوضات النورانية.

والخلاصة أن فلسفة القديس أوغسطين من الفلسفات الحية "الديناميكية" التي مازالت تؤثر في نفوس جماهير المؤمنين بالمسيحية، وتحركها في اتجاه الإيمان بالله والتقرب إليه، وهي دعوة إلى الحرية، وتحمل المسؤولية، ومشاركة الآخرين والتعاطف معهم بالحب والأمل والرجاء.

إنها فلسفة إيجابية تنويرية تفاؤلية دينية، وليست فلسفة سلبية تشاؤمية عدمية تاريخية. بل مازالت تنبض بالحياة لما لمبادئها من فاعلية، وقوة حركة، و طاقة كامنة. تحرك الأفراد والجماعات والتاريخ، تجاه السعادة والحب والتقدم والحرية والسلام.

الهوامش

١. حسن حنفي : نماذج من الفلسفة المسيحية ص ٣، جونو: الفلسفة الوسطية ص ٣١، والمدة التي تبدأ بظهور المسيحية حتى القرن التاسع تسمى بمرحلة عصر آباء الكنيسة ، أما فلسفة العصور الوسطى فتبدأ على وجه التدقيق في القرن التاسع وتنتهي تقريباً في القرن الرابع عشر الميلادي (عبدالرحمن بدوي: فلسفة العصور الوسطى ص ١٥).
٢. بدوي : المصدر السابق ص ٣.
٣. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة المسيحية ص ٣٥.
٤. عبدالرحمن البدوي : فلسفة العصور الوسطى ص ١٥.
٥. المصدر السابق ص ١٧.
٦. الاعترافات ص ٨٤، ٨٥، يوسف كرم : الفلسفة المسيحية ص ٢٣.
٧. محمد الزيني : مشكلة الفيض عند فلاسفة الاسلام ص ١٥٧.
٨. قنواني : المسيحية في الحضارة العربية ص ٣٠.
٩. بدوي : فلسفة العصور الوسطى ص ١٨.
١٠. المصدر السابق ص ١٨.
١١. الاعترافات ص ١٦٥.
١٢. المصدر السابق ص ١٦٦.
١٣. سورة الحديد : الآية ١٦.
١٤. الرسالة القشيرية ج ١ ص ٧٢.
١٥. يوسف كرم : تاريخ الفلسفة المسيحية ، وايضاً الموسوعة الفلسفية ص ٧٤، جونو : الفلسفة الوسطية ص ٣١.
١٦. بدوي : فلسفة العصور الوسطى ص ١٩.
١٧. ادوار جونو : الفلسفة الوسطية ص ٣١.
١٨. حسن حنفي : نماذج من الفلسفة المسيحية ص ٢٨.
١٩. بدوي : فلسفة العصور الوسطى ص ٢٦.
٢٠. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة المسيحية ص ٣٣.
٢١. بدوي : المصدر السابق ص ٢٦.
٢٢. جيلسون : روح الفلسفة المسيحية ص ٧٩.

٢٣. بدوي : فلسفة العصور الوسطى ص ٢٧.
٢٤. الاعترافات ص ١٢٦.
٢٥. المصدر السابق ص ١٠١.
٢٦. المصدر السابق ص ٢٧١، ١٢١، ١٢٦.
٢٧. الملل والنحل ج ١ ص ٥٣، محمد الزيني : ابو الهذيل العلاف وآراؤه الكلامية ص ٥٣.
٢٨. محمد الزيني : مشكلة الفيض عند فلاسفة الاسلام ص ١٦٢، من المعلوم أن اوغسطين بعد ان مال ميلاً شديداً لآراء الافلاطونية المحدثة، تحرر بعد ذلك من أغلبية آرائها لاسيما التي تخالف منهجه وتتعارض مع العقائد المسيحية.
٢٩. جيلسون : روح الفلسفة المسيحية ص ٢١٧.
٣٠. الاعترافات ص ١٩٨.
٣١. بدوي : فلسفة العصور الوسطى ص ٢٩.
٣٢. الاعترافات ص ٢٧٠، جيلسون : المصدر السابق ص ٢١٨.
٣٣. جيلسون : المصدر السابق ص ١٩٢.
٣٤. بدوي : المصدر السابق ص ٣٠.
٣٥. بدوي : أرسطو ص ١٧٦، أميره : الفلسفة عند اليونان ص ٢٨٣.
٣٦. أميره : المصدر السابق ص ٢٨٨.
٣٧. جيلسون : المصدر السابق ص ١٠٣.
٣٨. أميره مطر : الفلسفة عند اليونان ص ٤٠٥، وراجع أيضاً عثمان امين : الفلسفة الرواقية .
٣٩. راجع هذا الموضوع ، د. عبدالرزاق قسوم : مفهوم الزمان عند ابن رشد ص ٤٣ (طبعة الجزائر).
٤٠. الاعترافات ص ٢٤٩.
٤١. المصدر السابق ص ٢٥٠-٢٥٣.
٤٢. المصدر السابق ص ٢٥٤.
٤٣. عبدالرحمن بدوي : الزمان الوجودي ص ١٠٠، ولزريد من الاحاطة بمفهوم الزمان عند متكلمي الاسلام وفلاسفة لاسيما ابن سينا وابن رشد. راجع كتاب الدكتور قسوم : مفهوم الزمان في فلسفة ابن رشد ص ٥٣ وما بعدها.
٤٤. حسن حنفي : نماذج من الفلسفة المسيحية ص ٣٦، الاعترافات ص ١٩٤.

٤٥. الاعترافات ص ١٩٨.
٤٦. في الفلسفة الاسلامية ج ٢ ص ١٥١.
٤٧. افلاطون : محاوره فايدروس ص ٣١.
٤٨. محمد الزيني : مشكلة الفيض ص ٣٨.
٤٩. يوسف كرم : الفلسفة المسيحية ص ٣٨، بدوي : فلسفة العصور الوسطى ص ٣٢.
٥٠. جيلسون : روح الفلسفة المسيحية ص ١٩٠.
٥١. الاعترافات ص ١٦٠.
٥٢. المصدر السابق ص ١٦١.
٥٣. الموسوعة الفلسفية ص ٧٦.
٥٤. بدوي : فلسفة العصور الوسطى ص ٣٤.
٥٥. يوسف كرم : الفلسفة المسيحية ص ٤٢.
٥٦. عبد الجبار : المغنى ج ١٣ ص ٥١٤.
٥٧. الاعترافات ص ١٢٧.
٥٨. المصدر السابق ص ١٢٤.
٥٩. المصدر السابق ص ١٧.
٦٠. المصدر السابق ص ١٣٦.
٦١. جيلسون : روح الفلسفة المسيحية ص ١٧٧.
٦٢. بدوي : فلسفة العصور الوسطى ص ٣٦.
٦٣. الاعترافات ص ١٣٨.
٦٤. المصدر السابق ص ١٩٦.
٦٥. الملل والنحل ج ١ ص ٥٠، وايضاً محمد الزيني : ابو الهذيل العلاف ص ١٢٧.
٦٦. الاعترافات ص ٢١٤.
٦٧. المصدر السابق ص ٢١٢.
٦٨. المصدر السابق ص ٢١٥.
٦٩. نيكلسون : في التصوف الاسلامي ص ٨٤، التفتازاني : مدخل الى التصوف الاسلامي ص ٢١٩.
٧٠. جوة نو : الفلسفة الوسيطية ص ٣٤.

أهم المراجع

- ١- أوغسطين (ت ٤٣٠م): الاعترافات، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٢م.
- ٢- بدوي (عبدالرحمن): الزمان الوجودي.
- النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥.
- فلسفة العصور الوسطى، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م.
- ٣- التفتازاني (دكتور أبو الوفا): مدخل إلى التصوف الاسلامي. دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٤م.
- ٤- جونو (ادوار): الفلسفة الوسيطة، ترجمة د/ علي زيور. دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٢م.
- ٥- جيلسون (اتين): روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط. عرض وتعليق د/ امام عبدالفتاح امام، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٤م.
- ٦- حنفي (دكتور حسن): نماذج من الفلسفة المسيحية. دار الكتب الجامعية، القاهرة، ١٩٦٩م.
- ٧- الزيني (دكتور محمد): ابن القيم وآراؤه الكلامية، دار القطب، الجزائر، ١٩٩٣م.
- مشكلة الفيض عند فلاسفة الاسلام، ديوان المطبوعات، الجزائر، ١٩٩٣م.
- أبو الهذيل العلاف وآراؤه الكلامية والفلسفية، دار القطب، الجزائر، ١٩٩٣م.
- شهداء الفكر في الاسلام دار الهدى، الجزائر، ١٩٩٤م.
- ٨- الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبدالكريم ت ٥٤٨هـ):
- الملل والنحل، ت/ فتح الله بدران، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م.
- ٩- عبدالجبار (القاضي المعتزلي ت ٤١٥هـ)
- المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج- ١٣ (اللطيف) ت/ أبو العلاء عفيفي، ط، الدار المصرية للتأليف.
- ١٠- قسوم (دكتور عبدالرزاق):
- الزمان في فلسفة ابن رشد، المؤسسة الوطنية، الجزائر، ١٩٩٠م.
- ١١- القشيري (أبو القاسم عبدالكريم بن هوزان ت ٤٦٥هـ)
- الرسالة القشيرية، ت/ عبدالحليم محمود، دار الكتب الحديثية، القاهرة.

- ١٢- فنوا تي (الدكتور جورج شحاته):
 - المسيحية في الحضارة العربية، المؤسسة العربية، بغداد، ١٩٨٤م.
 ١٣- كرم (يوسف):
 - تاريخ الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، دار المعارف، القاهرة، القاهرة.
 ١٤- مذكور (د/ ابراهيم بيومي):
 - في الفلسفة الاسلامية ، ج١ ج٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦م.
 ١٥- نيكلسون (رينولد):
 - في التصوف الاسلامي وتاريخه،
 ترجمة د/ أبو العلا عفيفي، ط ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.